

”حملتُ الجميعَ طويلاً،
ولم يسألني أحدُ يوماً:
مَن يحملُ عنكِ هذا التعب؟“



كان البيت يعرف يدي ولا يعرفني

رواية

الكاتبة

نهد سليمان دالاتي



تنويه



الأحداث التي بين أيديكم ليست مجرد حبرٍ على ورق، ولا هي من نسج خيالٍ ترفيٍّ؛ بل هي مستوحاة من واقعٍ حيٍّ وقصةٍ حقيقية تُجسد صرخةً صامتةً في وجه الإهمال الأسري.

إنها مرآةٌ تعكس كيف يمكن لأقرب الناس إلينا أن يصنعوا كسورنا، وكيف يمكن للروح أن ترمم شتاتها بنفسها حين يخذلها الجميع. كتبُّها لتكون درسًا وعبرة، وطوقَ نجاةً لكلِّ نفسٍ عانت في عتمة الوجد صمتًا.



نهد سليمان دالاتي

الفهرس

4	المقدمة
7	الفصل الأول: بيتٌ بلا آذان
13	الفصل الثاني: فجرٌ قبل الشمس
17	الفصل الثالث: ثيابُ البيت
22	الفصل الرابع: الخطأ الوحيد
26	الفصل الخامس: نعم التي أكلت صحتّها
30	الفصل السادس: ليالي الوسادة
35	وقفة: حين يتكلّم الجسد ويصمت اللسان
38	الفصل السابع: المقعد المجاور
42	الفصل الثامن: أوّل دفء
46	الفصل التاسع: حين قال: أَحَبُّكَ
51	الفصل العاشر: حين انقلب الوجه
55	الفصل الحادي عشر: خوفٌ بلا ملامح
59	وقفة: لماذا تقع الجائحة في الفخ؟
62	الفصل الثاني عشر: أقرب صديقة
66	الفصل الثالث عشر: الباب الذي أُغلق
71	وقفة: حين لا تكون الأمّ ملاذًا
74	الفصل الرابع عشر: ليلة القرار
78	الفصل الخامس عشر: ولادة «لا»
83	وقفة: ثمن الحرّية وجمالها
86	الفصل السادس عشر: جسرٌ إلى نفسها
90	الفصل السابع عشر: من يحبّ حقًا
94	رسالة: إلى الطفلة التي كانتها
98	الخاتمة

المقدمة

قبل أن تبدأ الحكاية

ثمّة بيوتٌ تُبنى من الإسمنت والحجر، وثمّة بيوتٌ تُبنى من الكلمة الطيبة والنظرة الحانية واليد التي تُربت على الكتف حين يثقل الحمل. والفرق بين البيتين أنّ الأول يحمي الجسد من المطر، والثاني يحمي الروح من الانكسار. وما أكثر الذين يسكنون البيت الأول ويموتون جوعاً في انتظار الثاني.

هذه حكاية فتاةٍ اسمها ميرا. لم تكن بطلةً في الأساطير، ولا أميرةً في القصور، بل ابنةً كسائر البنات، وُلدت بقلبٍ يتسع للجميع، في بيتٍ لم يتسع لها. لم تُضرب بسيف، ولم تُنَفَّ إلى صحراء، لكنّ شيئاً فيها كان يموت على مهلٍ كل يوم: صوتها، وثقتها، وإيمانها بأنها تستحقّ أن تُحبّ.

إنَّ الأهل هم المرأة الأولى التي يرى فيها الطفل وجهه.
فإن نظروا إليه بحبٍ رأى نفسه جديرًا بالحياة، وإن
نظروا إليه بإهمالٍ ظنَّ أنه خطأٌ يمشي على قدمين. ومن
لم يتعلَّم أنَّ قيمته ثابتةٌ لا تُنتزع، قضى عمره يبحث
عنها في عيون الغرباء، وسلَّم قلبه لأول يدٍ تمتدَّ إليه
بالدفء، من غير أن يسأل: أهى يدُ صدقٍ أم يدُ صيدٍ؟

وهذا الكتاب اسمه «كان البيت يعرف يدي ولا
يعرفني»، لأنَّ في كل بيتٍ من هذا النوع جدرانًا تحفظ
أثر اليد التي تمسحها وتُرَتِّبها وتُنظِّفها كلَّ يوم، ولا تعرف
شيئًا عن القلب الذي تحمله تلك اليد. أثرُ الجهد يبقى
على الأرفف والأرضيات، أمَّا صاحب الجهد فيبقى غريبًا
في داخل بيته.

كُتبت هذه الصفحات لا لثُبْكَيْكَ، وإن بكيتَ فلا حرج؛
بل لتذكرك بأنَّ الجراح التي نتلقاها من أقرب الناس

ليست قدرًا أبدًا، وأنّ في الإنسان قدرةً عجيبة على أن
يلملم شتاته، وأن يصير — بعد كل ما كان — جسرًا
إلى نفسه.



«ليست كلّ الجراح تأتي من الأعداء؛ فبعضها
يأتي من البيت الذي ظنناه وطنًا.»

الفصل الأول

بيت بلا آذان



كان البيت يقع في زقاقٍ ضيّقٍ تتدلّى من شرفاته
أحواض الريحان وحبّال الغسيل، وكان يبدو للمارّ من
أمامه بيتًا آمنًا دافئًا، تفوح من نوافذه عند المغيب
رائحة الخبز والبصل المقلّي، ويتسرّب من خلف ستائره
ضوءٌ أصفر هادئ. غير أنّ من يدخله كان يشعر على
الفور بما لا تقوله الجدران: بردٌ خفيّ يسكن الأركان
حتى في عزّ الصيف، وصمتٌ ثقيلٌ لا يشبه صمت
الراحة، بل صمت الذين لا يجدون ما يقولونه لبعضهم.

في هذا البيت وُلدت ميرا، وفيه تعلّمت أولى حروفها
وأولى مخاوفها. كان الناس يقولون عن عائلتها إنها
«عائلة محترمة»، وهي كذلك بمقياس الشارع: أبواب
مغلقة، وأصوات منخفضة أمام الجيران، وسمعةٌ لا تُمسّ.

لكِنَّ الاحترام الذي يُدار للخارج غالبًا ما يُبنى على حساب الحنان الذي يُحجَّب في الداخل. كان في العائلة ضلَعٌ مائل، لا يكاد يلحظه الغريب، لكنَّ كلَّ من عاش فيها كان يتحسَّس أثره في ظهره كلَّ يوم: لا أحد يفهم أحدًا، ولا أحد يحاول أن يفهم.

كان الأب يُعرَف بخطواته قبل أن يُرى. ما إن يدور مفتاحه في القفل حتى يتغيَّر الهواء في الغرفة: يخفت صوت التلفاز، وتُرتَّب الأشياء على عجل، وتنكمش الأكتاف. وكانت ميرا — منذ كانت صغيرة — قد حفظت إيقاع تلك الخطوات كما يحفظ البحَّار اتجاه الرياح؛ تعرف من وقعها إن كان مزاجه صافيًا أم عكرًا، وإن كان الأفضل أن تبقى في غرفتها أم أن تجلس في الصالة لتبدو حاضرةً ومطبعة. لم يكن الخوف عندها شعورًا طارئًا يأتي ويذهب، بل مناحًا تعيش فيه كما تعيش السمكة في الماء.

أما الأم فكانت لغزًا لا تنتهي ألغازه. تارةً تمسح على شعرها بيدٍ دافئة وتسالها عن يومها، وتارةً تمرّ بها كأنها قطعة أثاثٍ في الممرّ. وكانت ميرا — الصغيرة التي لم تتعلّم بعد أن تفسّر تقلّبات الكبار — تظنّ في كل مرّة أنّ سبب القسوة خطأ ارتكبته هي، وأنّ عليها أن تكتشفه وتُصلحه لتعود الأم الحنون. ولم تدرك إلا بعد سنواتٍ طويلة أنّ بعض القلوب تقسو لأنها هي نفسها لم تُحبّ، وأنّ الطفلة لا ذنب لها في جفاء من أنجبتها.

وفي مساءٍ من تلك المساءات، عادت ميرا من المدرسة وفي صدرها فرحةٌ صغيرة. كانت معلّمتها قد وقفت أمام الصفّ وأثنت على كتابتها، وقالت إنّ في جملها صدقًا لا يُلَمَس عند الأطفال. حملت تلك الجملة طوال الطريق كما تُحمل البيضة الهشّة، وانتظرت العشاء لتضعها أمام أهلها. وحين جلس الجميع، وتناثرت أصوات الملاعق،

تنحنحت، وقالت بصوتٍ خافتٍ فيه رجاء: «اليوم قالت لي المعلمة...».

لم تُكمل. جاء الردّ كأنه ماءٌ باردٌ على جمرة: «وما شأننا نحن بما قالت المعلمة؟ كُلّي طعامكِ. وبعد ذلك عندكِ ما تفعلينه». ثم عاد الحديث إلى ما كان فيه، كأنّ جملتها لم تُقل. وفي تلك اللحظة، وهي تبتلع اللقمة الأولى وفي حلقها غصّة، فهمت ميرا أنّ للفرح ثمنًا لا تقدر عليه: أن يبقى سرًّا. ومنذ ذلك المساء صارت تحمل أفراحها الصغيرة إلى غرفتها وتُنفقها هناك وحدها، كما يُنفق البخيل قروشه في الظلام.

وكانت إذا همّت بأن تعترض على أمرٍ أو تُبدي رأيًا، جاءها الجواب الجاهز، المتوارث كإرثٍ لا يتبدّل: «وما فهمكِ أنتِ؟ لا تفقهين في هذه الأمور... اصمتي». فتنكمش الكلمة في فمها، وتعود أدراجها إلى حيث

جاءت. وهكذا كبرت ميرا وفي داخلها مقبرة صغيرة
لل كلمات التي لم تُقَل، ومع كل «اصمتي» كانت تُدْفَن
فيها كلمة جديدة.

ولعلّ أخطر ما في هذا النوع من البيوت أنه لا يُعلّم
الطفل الصمت بالعنف وحده، بل بالتجاهل أيضًا.
فالطفلة التي تُحَرَم الإصغاء لا تُحَرَم الكلام فقط، بل
تُحَرَم الشعور بأنها موجودة. إنّ الإنسان لا يعرف قيمته
من تلقاء نفسه؛ إنما يتعلّمها أول ما يتعلّم من العيون
التي تنظر إليه والآذان التي تُصغي إليه. فإذا انشغلت
تلك العيون عنه، وأُغلقت تلك الآذان دونه، نشأ وفي
داخله سؤالٌ موجه لا يجرؤ على النطق به: هل أستحقُّ
أن أُسمَعَ؟

هكذا بدأت حكاية ميرا؛ لا بحدثٍ ضخمٍ يهزّ الأرض، بل
بتفصيلٍ صغيرٍ يتكرّر كل يوم، حتى صار جدارًا.



«البيت الذي لا يُصغي لأبنائه يُعلمهم أن
يصمتوا، والصمت الطويل يتحوّل مع الأيام إلى
ظنٍّ بأنّ لا صوت لنا أصلاً.»

الفصل الثاني

فجرٌ قبل الشمس

لم يكن المنبه بحاجةٍ إلى أن يرنَّ؛ فقد اعتاد جسد ميرا أن يوقظ نفسه قبل الفجر بدقائق، كأنَّ في داخلها ساعةً صغيرة لا تتوقّف عن العدّ. كانت تفتح عينيها في العتمة، وتبقى لحظةً ساكنةً تستمع إلى بيتٍ ما زال نائمًا، ثم تنهض بحذرٍ كي لا يصرّ السرير ولا يُوقظ أحدًا. لم تكن اللحظة الأولى من يومها لحظة رغبةٍ في شيء، بل لحظة استعدادٍ لحمل ما ينتظرها.

كانت تمشي حافيةً على البلاط البارد، تفتح النوافذ واحدةً بعد أخرى ليدخل هواء الصباح، وتجمع الأكواب التي نسيها أحدٌ على الطاولة، وتنفض الوسائد، وتمسح الغبار عن الأرفف التي لا تلتفت إليها عينٌ سواها. ثم تكنس الصالة، وتنظّم الأحذية عند الباب، وتجمع ثياب

الأمس من حيث رُميت. وكانت ترتب كل شيء بعناية لا تُشبه عناية من يؤدّي واجبًا، بل عناية من يتوهم أنّ البيت المرتّب قد يصير بيتًا محبوبًا، وأنّ الأرض اللامعة قد تُنبت في القلوب شيئًا من الرضا.

وبينما تعمل كانت الأفكار تدور في رأسها كما يدور الحمام حول البرج: تُراها سترضى اليوم؟ هل نسيث شيئًا؟ هل أنهي قبل أن يستيقظ أبي؟ ولم تكن أسئلتها عن الفرح ولا عن الرغبة، بل عن تجنّب الخطأ، كأنّ حياتها كلّها اختبار لا يُسمَح فيه بنقطة واحدة تُخصم. وهذا من أقسى ما يفعله البيت القاسي بالطفل: يحوّل حياته إلى حذرٍ دائم، ويستبدل بسؤال «ماذا أحب؟» سؤال «ماذا ينبغي ألا أخطئ فيه؟».

ثم تدخل غرفتها وتقف أمام المرأة الصغيرة المعلقة خلف الباب. تُسرح شعرها بأصابعها، وتُسوي ياقة

قميصها، وتنظر إلى وجهِ صاحبٍ يحمل نصف نومٍ ونصف قلق. لم تكن تتأمل جمالها، ولم يكن أحدٌ قد علّمها أن تفعل؛ كانت فقط تتحقّق أنّ الفتاة التي ستخرج إلى العالم تبدو سليمةً بما يكفي كي لا يسألها أحدٌ عمّا وراء العينين. وكانت تُتقن هذا القناع إتقانًا لا تُتقنه سنٌّ في مثل سنّها.

وحين تفرغ، يكون الضوء قد بدأ يتسلّل من بين الستائر، وصوت الجيران يرتفع من الزقاق، ورائحة القهوة تتصاعد من مكانٍ ما. تحمل حقيبتها على كتفٍ واحد، وتُلقي نظرةً أخيرةً على البيت اللامع الذي أنجزته بيديها، ثم تخرج. وكان في ذلك المشهد شيءٌ من المفارقة المؤلمة: أنها تترك خلفها بيتًا نظيفًا مرتّبًا لا أثر فيه لها، وكأنها لم تكن هناك؛ فكلّ ما تفعله يُحسّ بعد غيابه، ويُنسب إلى الجدران لا إلى اليد التي صنعتها.

وفي الطريق إلى المدرسة، بين الأزقة التي بدأت
تستيقظ، كانت تمشي وحدها، وتراقب الأمهات يحملن
أطفالهنَّ ويُقبّلنهم عند الأبواب، والآباء يضعون أيديهم
على أكتاف أبنائهم. لم تكن تحسدهم، فهي لم تتعلّم أن
تتميّ ما لا تعرفه؛ لكنّها كانت تنظر إليهم كما ينظر
الغريب إلى لغةٍ لا يتقنها، يعرف أنّ في كلماتها جمالاً،
ولا يعرف كيف يتكلّمها.



«ليس كلّ من يستيقظ باكراً طامحاً؛ فبعضهم
يستيقظ باكراً لأنّ الخوف لا ينام.»

الفصل الثالث

ثياب البيت



كانت المدرسة، على ما فيها من واجباتٍ وامتحانات، أشبه بجزيرةٍ هادئةٍ في بحر يومها. هناك كان لها مقعدٌ تعرفه، ودفتراً يُصغي إلى ما تكتب، ومعلّماً يمرّ بعضهنّ على ورقتها فيلمسن ما فيها من حساسيةٍ ورهافة. لم تكن من أولئك المتفوّقات اللاتي يُشرن إلى أنفسهنّ، لكنها كانت تُنجز ما عليها بإتقانٍ هادئٍ، وتتجنّب الأضواء كما تتجنّب الأخطاء. وكان الجرس الأخير في آخر النهار يرنّ في أذنها كصوتٍ من بعيدٍ يقول: ها قد انتهت استراحتك.

تعود إلى البيت في الظهيرة، وتدخل فتجد الأشياء قد تبدّلت: كؤوسٌ جديدة على الطاولة، وثيابٌ متناثرة، وأحذيةٌ خلعت على عجل، وأثرُ أقدامٍ على الأرض التي

لمعت فجراً. فلا تسأل ولا تتذمّر. تدخل غرفتها، وتخلع ثياب المدرسة وتطويها، وتلبس ثياب البيت — تلك الثياب القديمة الباهتة التي صارت في وعيها بمثابة بزة العمل — ثم تبدأ من جديد بترتيب ما رتبته قبل ساعات.

كأنّها كانت تبني قصرًا من الرمل على شاطئٍ لا يتوقّف عن المدّ. ما إنّ تنتهي من غرفةٍ حتى يعود الفوضى إلى الأخرى، وما إنّ تُنهي من الصالة حتى تجد المطبخ قد امتلأ. لم يكن الأمر فوضى عادية يُسهم الجميع في تنظيمها، بل كان نظامًا غير معلّن، قاعدته أنّ ميرا هي من يُصلح، وأنّ الآخرين لهم حقّ أن يُفسدوا. وكان كل شيء في البيت يعتمد عليها: الغسيل، والترتيب، والتنظيف، وتجهيز الأغراض، وإحضار ما يُطلب، وتقديم الشاي للضيوف. كل شيء، ما خلا الطبخ وحده.

كانت أحيانًا تقف أمام الحوض وفي يديها الماء، وتنظر من النافذة الصغيرة إلى سطح الجيران، حيث ترى فتاة في مثل عمرها تضحك مع أمها وهما تنشران الغسيل معًا. وكانت تتأمل المشهد طويلًا، لا بحسرةٍ صاخبة، بل بدهشةٍ هادئة؛ كأنها تكتشف أن هناك طريقةً أخرى لفعل الأشياء نفسها: أن تُنجز بالرفقة لا بالوحدة، وبالضحك لا بالصمت. ثم تعود إلى صحنها، وقد أحسّت بشيءٍ صغيرٍ ينكسر في داخلها دون ضجيج.

وما كان ذلك التعب يُطاق لولا أن أحدًا لم يره. لا كلمة شكر، ولا نظرة امتنان، ولا ربتةً على الكتف تقول لها: أحسنت. كانت تُعامل كأنها خادمةٌ لا ابنة. بل أقلّ من الخادمة؛ فالخادمة تُؤجر وتُشكر ويُعتذر إليها أحيانًا، أما هي فكان عملها حقًا مكتسبًا لا يُشكر عليه، وواجبًا لا يُحسب، وكأن وجودها نفسه عقدٌ خدمةٍ وُقِع قبل ولادتها.

وهنا يكمن أحد أخفى وجوه الإهمال: أن يُسَحَقَ الطفل
بالمسؤوليات تحت اسم «التربية» و«تحمّل
المسؤولية»، بينما هو في الحقيقة يُحَرَم من طفولته.
فالمسؤولية التي تُمنَح تدريجيًّا مع الحب تُنبت إنسانًا
قويًّا، أمّا التي تُفرض دفعةً واحدةً بلا تقدير فنُبت إنسانًا
مُنْهَكًا يظنّ أنّ قيمته في ما يُقدِّمه لا في ما هو عليه.

ومع حلول الغروب، حين يعود الأب وتتحرك الأم في
المطبخ، تكون ميرا قد أنهت كل شيء. فتجلس في
زاوية من الصالة لتُنجز واجباتها المدرسية على ضوءٍ
خافت، ولا أحد يسألها: هل تعبتي؟ هل أنت جائعة؟
وكأنّها هواءٌ يتحرك في البيت فيُنْعش ما حوله دون أن
يُلتَقَت إليه.



«العطاء الذي لا تقابله كلمة شكر يتحوّل عند
الآخرين إلى عادة، وعندك إلى استنزاف.»

الخطأ الوحيد



في مساءٍ باردٍ من أواخر الخريف، عادت ميرا من المدرسة مرهقةً أكثر من المعتاد؛ كان لديها امتحانٌ في اليوم التالي، وبدأ لها أن رأسها يثقل على عنقها كحجر. ومع ذلك دخلت البيت، وبدلت ثيابها، وبدأت تؤدّي ما اعتادت: غسلت، ورتّبت، ونظّفت، وجّهزت ما طُلب منها. كان عدد ما أنجزته في ذلك اليوم يتجاوز العشرين شيئاً صغيراً، كلّها لا يلاحظها أحدٌ إلا حين تغيب.

ثم نسيت. لم يكن نسياناً ثقیلاً؛ كان أمراً بسيطاً لا يستحقّ ذكراً: غرضٌ لم يُوضّع في مكانه، أو طلبٌ صغير لم تنتبه له وسط انشغالها بما كان أهمّ. لكن البيت كلّهُ التفت إليها في لحظةٍ واحدةٍ كما تلتفت قبيلةٌ إلى متهّم. بدأ الصوت الأول بنبرةٍ حادة، ثم تبعه آخر، ثم ارتفع

الجميع في موجةٍ واحدةٍ من اللوم والتوبيخ: «ألا تفعلين شيئًا بشكلٍ صحيح؟ كم مرّةً قلنا لك؟ لا فائدة منك!».

وقفت ميرا في وسط الصالة، يداها متدلّيتان، وعيناها إلى الأرض. لم تدافع عن نفسها. لم تقل: «لقد فعلتُ اليومَ عشرين شيئًا قبل هذا». لم تقل: «أنا متعبةٌ وعندي امتحان». لم تقل شيئًا من ذلك؛ فقد علّمتها السنون أنّ الدفاع عن النفس يُفسّر وقاحة، وأنّ شرح التعب يُسمّى تذرّماً. وقفت كما يقف المحكوم في ساحة القضاء، وهو يعرف أنّ الحكم صدر قبل أن تبدأ الجلسة.

كانت الإهانات تتساقط كما تتساقط الحجارة الصغيرة: لا تؤذي حجرٌ منها وحده، لكنّ تراكمها يترك في الجسد ضيقًا لا يزول. وكانت ميرا تعدّ في داخلها — دون أن تدري — كم مرّةً سمعت هذه الجمل، وكم مرّةً ستسمعها بعد، وكيف سيبقى الأمر هكذا إلى أن تغادر.

وكان أقسى ما في ذلك أنها بدأت تُصدّق: ربما فعلاً لا فائدة منها، وربما فعلاً هي مقصّرة لا تُجدي.

ومرّت الدقائق، وانفضّ الجمع كما اجتمع، وعاد كلّ إلى شأنه. أمّا ميرا فبقيت ساعةً أخرى تُصلح الخطأ الذي لم يكن خطأً، ثم دخلت غرفتها وجلست على حافة السرير. لم تبك فوراً؛ بل جلست صامتةً تحاول أن تفهم المعادلة: لماذا تُنسى المئة ويُحفظ الواحد؟ لماذا لا يُحاسب الناس على ما أهملوه في حقّها كما يُحاسبونها على ما أهملته في حقّهم؟

لم تجد جواباً. وهذا ما يفعله الظلم حين يتكرّر: لا يُشعر الضحية بالغضب فقط، بل يُربكها، ويجعلها تشكّ في ميزانها الداخلي. فتبدأ بإعادة حساب ذاتها بمقاييس الآخرين، وتغدو الفتاة التي كانت تعرف أنها اجتهدت تتساءل: هل أنا حقّاً كسولة؟ هل أنا حقّاً مقصّرة؟ وبهذا

السؤال يكتمل ما أَراده الظلم منذ البداية: أن تُصبح الضحية قاضيًا على نفسها.

في تلك الليلة امتحنت ميرا في مادّتها وهي تحفظ ما حفظته بصعوبة، وفي الصباح ذهبت إلى الامتحان بعينين منتفختين. نجحت، كعادتها، دون أن يسألها أحدٌ عن النتيجة. وحين عادت لم تجد من تخبره؛ فاحتفظت بالنجاح لنفسها، ولم تدرك أنّها بدأت في تلك اللحظة تحتفظ بكل شيءٍ لنفسها: بالنجاح وبالألم وبالسؤال.



«حين تُنسى المنة ويُحفظ الواحد، فالمشكلة ليست في اليد التي أخطأت، بل في العين التي لا ترى.»

نعم التي أكلت صحتّها

كان في داخل ميرا، لو أنّ أحدًا أحسن النظر، إنسانةً كاملة: لها ذوقها في الألوان، وفكرتها في الأشياء، وحسّها المرهف بما يُؤلم الآخرين وما يُفرحهم. لكنّ هذه الإنسانة كانت مدفونة تحت طبقاتٍ من «حاضر» و«أمرك» و«طيب»، كأنّها بذرةٌ أُلقيت في تربةٍ لم تُسقَ فتعلّمت أن تنتظر دون أن تنبت. وهكذا بدت للناظرين فتاةً ضعيفةً بلا شخصية، لا تُبدي رأيًا ولا تطلب حقًا.

وما الشخصية، في آخر الأمر، إلا ما يُسمَح لك أن تُظهره منها. فمن يُقطع برعمه كلّ مرّةٍ يمتدّ فيها، يتعلّم أن يُخفي الامتداد. وميرا لم تكن عديمة الشخصية؛ كانت شخصيتها مختبئةً كما تختبئ سمكةٌ صغيرة بين صخور

القاع حين تمرّ فوقها ظلال الجوارح. وقد ظلّ أهلها أن الصخور هي حقيقتها، فلم يحاولوا يومًا أن يتبيّنوا ما خلفها.

وكانت تقول «نعم» لكل شيء. نعم للطلب الذي يفوق طاقتها، نعم للأمر الذي لا تفهم سببه، نعم للإهانة التي لا تستحقّها، نعم لما يتعارض مع رغبتها. حتى حين يصرخ جسدها طالبًا الراحة، كانت تقول «نعم» وتمضي. وكانت «نعم» عندها ليست موافقة، بل استسلامًا مهذبًا؛ كلمة تُنقذها من العاصفة التي تجرّها كلمة «لا».

مرضت ذات شتاءٍ مرصًا خفيقًا لكّنه مُنْهَك: حرارةٌ تتسلّق جسدها بخبت، وأطرافٌ ثقيلة، ورأسٌ يدور إذا وقفت. لم تقل لأحدٍ شيئًا في أول يومين. وفي الثالث، حين كان البيت بحاجةٍ إلى ما اعتاد أن تقوم به، نهضت من فراشها بأطرافٍ ترتعش، وأمسكت المكنسة

وهي تستند إلى الجدار. وحين رأتها أمّها على تلك الحال، قالت ما يُشبه التذمّر: «ما هذا الوجه الأصفر؟ تأخّرتِ اليوم في كل شيء».

ما كان في الجملة سؤالاً عن صحتّها، ولا قلقاً على حرارتها، ولا يدّ تتحسّس جبينها. وقفت ميرا أمام ذلك كأثّها تقف أمام جدار، وفهمت أنّ جسدها نفسه ليس ملكها: فإن مرض، كان المرض خطأً منها، وإن تعب، كان التعب إهمالاً، وإن طلب الراحة، كان الطلب دلعاً. وهكذا كانت تعلّمه أن يصمت هو الآخر، كما علّمت لسانها من قبل.

ولا يعرف الكثيرون أنّ الصحة النفسية والجسدية للطفل ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بقدرته على أن يقول «لا». فمن لا يستطيع أن يرفض، لا يستطيع أن يحمي نفسه. ومن لا يحمي نفسه تُستنزف طاقته شيئاً فشيئاً حتى يصير جسده

مرآة لما لا يُقال. وقد كان جسد ميرا يتكلّم عنها حين
سكنت: نومٌ مضطرب، ومعدةٌ تؤلمها عند الغضب،
وصداغٌ يرافق كلّ مواجهةٍ لا تحدث.

وكانت تظنّ أنّ هذا هو الثمن الطبيعي لأن تكون «بنّاءةً
مؤدّبةً». لم يخبرها أحدٌ أنّ الأدب لا يعني أن تذوب، وأنّ
الطاعة التي تُمحي صاحبها ليست فضيلة بل فقدان.
وربما لو قالت لها أمّ ذات يوم: «من حقّك أن ترفض،
ومن حقّك أن تتعي»، لتغيّر مسارٌ كاملٌ من حياتها.
لكنّ تلك الجملة لم تُقل، فعاشت ميرا سنواتٍ طويلةً
تبحث عنها في كل مكان.



«من لم يُسمح له بقول «لا»، فإنّ «نعم» عنده لا
تعدّ كلمةً حرّة، بل خوفًا مُهدّبًا.»

ليالي الوسادة

كان الليل، في بيت ميرا، يأتي على مراحل: تهدأ الأصوات أولاً، ثم يخفت ضوء الصالة، ثم تُغلق الأبواب الواحد تلو الآخر، فيصير البيت كله كأنه يتنفس نفساً ثقیلاً قبل النوم. وفي تلك اللحظة بالذات، حين يطمئن الجميع أنّ يومهم انتهى، كان يومٌ آخر يبدأ في غرفة صغيرة في آخر الممرّ: يوم ميرا الحقيقي.

كانت تدخل غرفتها وتُغلق الباب بحذرٍ كي لا يُسمع له صوت، وتستند إليه لحظةً كأنّها تتأكّد أنّ العالم قد بقي في الخارج. ثم تمشي إلى السرير، وتجلس على حافّته، وترك وجهها يسقط عنها قطعةً قطعة: الابتسامة المهذّبة أولاً، ثم نظرة الطاعة، ثم القناع الذي يقول «أنا بخير».

وحين لا يبقى منه شيء، كانت الدموع تأتي كما يأتي
المطر بعد غيمةٍ احتبست طويلاً.

كانت تبكي بكاءً هادئاً في البداية، كأنها تعتذر للدموع
عن إزعاجها، ثم يعلو حتى تدس وجهها في الوسادة لتكتم
الصوت. تبكي على تعبها الذي لم يره أحد، وعلى كلمة
الشكر التي لم تُقَل، وعلى الفرحة التي ماتت على مائدة
العشاء، وعلى وحدتها التي تتسع كل يومٍ كأنها بحرٌ لا
شاطئ له. وكانت الوسادة هي الكائن الوحيد في ذلك
البيت الذي يعرف عنها كل شيء، ويحفظ سرّها دون أن
يُجيب.

ولم تكن تبكي لأنها ضعيفة، كما قد يُظنّ، بل لأنّ
الدموع كانت اللغة الوحيدة المتاحة لها. فمن حُرّم
الكلام تعلّم أن يتكلّم بغيره: بالدمع، وبالصمت، وبألم
المعدة، وبالأرق الذي يطول. وكانت كل ليلةٍ تنتهي

بالطريقة نفسها: تنام وهي منهكةٌ من البكاء، وتصحو
فجرًا لتبدأ الدورة من جديد، كأنَّ حياتها دائرةٌ تدور بلا
مخرج.

وكان سؤالٌ واحد يعود إليها كل ليلة، كأنه ضيفٌ لا يملّ:
لماذا أُمي حنونَةٌ عليّ أحيانًا، وقاسيةٌ في أكثر الأوقات؟
لم تكن تفهم. لو كانت قاسيةً دائمًا لاعتادت، فالقلب
يعتاد ما يتكرّر. لكنّ تلك اللحظات النادرة التي كانت
الأمّ فيها تلين — كأنّ تسألها عن يومها بصوتٍ دافئ، أو
تُعدّ لها شيئًا تحبّه، أو تضع يدها على كتفها دون سببٍ
ظاهر — كانت تفتح في قلبها نافذةً من الأمل، ثم يُغلقها
الصباح بقسوته.

تتذكّر ميرا ليلةً بعينها، بعد يومٍ كانت فيه أمّها لطيفةً
على غير عاداتها؛ جلست معها نصف ساعة، وسألتها عن
مدرستها، وضحكت لشيءٍ قالته. نامت ميرا تلك الليلة

بقلبٍ خفيف، وقالت لنفسها: «ها قد عادت أُمِّي إلَيَّ». وفي الصباح التالي، استيقظت لتجد الوجه الجاف نفسه، والصوت الحادّ نفسه، وكأنّ ما حدث بالأمس كان حلمًا رآته في عزّ التعب. ومنذ ذلك اليوم تعلّمت أن تخاف من الحنان نفسه؛ لأنّه — كما رأت — لا يدوم.

وذلك أشدّ أنواع الجوع ألمًا: أن تُسقى قطرةً ثم تُحرَم النهر. فالقلب الذي يُعطى الحنان بالقطّارة يتعلّق بالقطرة تعلّق الغريق بالقشّة، ويظلّ ينتظرها، ويبرّر من أجلها كلّ جفاء. وهكذا كبرت ميرا وفي داخلها طفلةٌ تنتظر على الباب، لا تعرف إن كانت الأبواب ستُفتح لها يومًا.

وفي هذا الانتظار تكمن بذرة ما سيأتي: فالقلب الذي يتدرّب على الجوع يصير سهل الإغراء لأول من يُطعمه. وليس ذلك عيبًا في القلب، بل عيبٌ في من أجاعه.

فمن حرم ابنته الحنان في بيته، لا يحقّ له أن يتعجّب
إن وقعت في أحضان من يتظاهر به خارجه.



«القسوة التي تتخلّلها لحظات حنان تُبقي القلب
معلقًا بين أملٍ لا يتحقّق ووجعٍ لا ينتهي.»

حين يتكلم الجسد ويصمت اللسان



قبل أن نتابع، دعونا نتوقّف قليلاً عند ما رأيناه في هذه
الفصول؛ لأنّ ما عاشته ميرا ليس حكايةً فردية تُروى ثم
تُنسى، بل نمطٌ تعرفه بيوتٌ كثيرة وإن اختلفت أسماؤها
وتفاصيلها. إنّ ما يُسمّيه المختصّون الإهمال العاطفي: ألا
يُضرب الطفل ولا يُجوّع، لكنّه يُترك وحده مع مشاعره،
فلا يُسأل عنها ولا تُصغى لها ولا تُعترف بها.

وأخطر ما في هذا الإهمال أنّه لا يترك أثراً يُرى. فالجسد
المضروب يُرى عليه الكدم، وتُقام عليه الحجّة. أمّا
الروح المهملة فلا كدمة عليها ولا ضمادة، ولذلك قد تظلّ
سنواتٍ طويلة تنزف في صمتٍ دون أن يلتفت إليها
أحد، حتى صاحبها نفسها قد لا تعرف ما اسم ما تشعر

به. وكم من فتاة تقول: «لم يفعل بي أهلي شيئاً سيئاً»، وهي لا تدري أن «اللاشيء» كان هو أسوأ ما فعل بها.

والطفل الذي يعيش في هذا المناخ يتعلّم بالتدريج مجموعة من الدروس الخفية، لا يقولها له أحد، لكنّه يستخلصها بنفسه. يتعلّم أن احتياجاته عبء، فيتوقّف عن إظهارها. ويتعلّم أن مشاعره لا قيمة لها، فيتوقّف عن الإحساس بها أمام الآخرين. ويتعلّم أن حبّه مشروط بما يقدّمه، فيصير مجتهداً حدّ الإنهاك، حذراً حدّ الشلل، مطيعاً حدّ المحو. ويتعلّم أخيراً أن يراقب وجوه الكبار كما يراقب البحار الريح، فيعيش يقظاً دائماً، لا يعرف راحة الطمانينة.

وحين يكبر هذا الطفل يحمل هذه الدروس معه إلى كل علاقة تأتي بعد ذلك. فتجده يعتذر عمّا لم يفعله، ويتحمّل ما لا يُحتمل، ويخجل من أن يطلب ما يستحقّه.

وتجده — وهذا أدق ما في الأمر — لا يعرف ما الذي يريده هو؛ لأنه ظلَّ عمره يسأل ما الذي يريده الآخرون. فتصير هويّته كلّها صدى لأصواتٍ غيره، كأنه بيتٌ لا ساكن فيه.

وهنا يتكلّم الجسد حين يصمت اللسان: أرقّ، وصداعٌ، وألمٌ في المعدة، وتعبٌ بلا سبب، ونوباتٌ بكاءٍ تأتي من حيث لا يُنتظر. وليست هذه أمراً خياليّة، بل لغةٌ جسدٍ يحاول أن يقول ما مُنع صاحبه من قوله. وقد كان جسدٌ ميرا يفعل ذلك كلّ ليلة، وهي لا تعرف أنّ دموعها ليست ضعفاً، بل شهادةٌ صادقةٌ على ما كان يجري في بيتها.



«الجرح الذي لا يُرى لا يعني أنّه لا يُؤلم؛ بل
يعني أنّ أحداً لم ينظر.»

المقعد المجاور

جاءت سنة البكالوريا كما يأتي الامتحان الكبير في حياة كل فتاة: ثقيلة بالتوقعات، مضيئة بالأمل. وكانت لميرا خصوصيتها في ذلك؛ فالدراسة كانت منفذها الوحيد إلى حياةٍ مختلفة، وهي تدرك — بحدسٍ لا يخطئ — أنَّ الشهادة قد تكون الجسر الذي يعبر بها إلى مكانٍ لا يُقال لها فيه «اصمتي». ولذلك أقبلت على المعهد الذي اشتركت فيه بحماسٍ هادئ، وكأنَّها تدخل بابًا قد يفضي إلى هواءٍ جديد.

كان المعهد قاعةً واسعةً تعجّ بالطلاب، تفوح منها رائحة الأقلام والورق ودفع الأجساد في أيام الشتاء. وكانت المقاعد مصفوفةً في صفوفٍ طويلة، وللمدرسين أصواتٌ مختلفة بعضها يهدئ وبعضها يُرهب. هناك، لأول مرّة منذ

سنوات، شعرت ميرا بأنّها شخصٌ بين أشخاص، لا خادمةً بين سادة. كان أحدهم يسألها عن ورقةٍ نسيها، وآخر يُعيرها قلمًا، وثالثٌ يبتسم لها حين تلتقي أعينهما، فتشعر أنّ الدنيا أرحب ممّا ظنّنت.

وإلى جوارها في أحد الصفوف جلست فتاةٌ أصبحت بعد أسابيع أقرب إنسانٍ إلى قلبها. لم يكن بينهما في البداية سوى أدواتٍ مشتركة وسؤالٍ عن موعد الحصة، ثم تبدّل الأمر على مهل: ضحكةٌ في استراحة، ومشيٌّ معًا إلى الباب، وحديثٌ صغيرٌ عن البيت والأهل والأحلام. وكانت ميرا — رغم حذرها الذي اكتسبته من سنواتها — تُحسّ بأنّ في هذه الصديقة شيئًا مختلفًا: عياناً تُصغيان حقًا، وقلبٌ لا يتعجّل الحكم.

وكانت أول مرّة تضحك فيها ميرا ضحكةً كاملة، تُسمَع ويُرى أثرها على وجهها، وهي جالسةٌ مع صديقتها على

درج في فناء المعهد. لا تذكر ما الذي أضحكهما؛ ربما حكايةٌ سخيفة عن مدرّسٍ نسي نظّارته على رأسه. لكنّها تذكر جيّدًا الإحساس الذي تلا الضحكة: ذلك الارتخاء الغريب في الصدر، كأنّ يدًا كانت تقبض على قلبها منذ سنواتٍ ثم أرخت قبضتها قليلًا.

وكانت ميرا، في جوهرها، طيّبة القلب إلى حدّ السذاجة أحيانًا. كانت تثق بكل من يبتسم لها، وتمنح محبّتها دفعةً واحدة، وتصدّق ما يُقال لها. ولم يكن ذلك سوء تقدير، بل هو وجه من وجوه الجوع: فمن لم يعرف كثيرًا من الدفء يظنّ كلّ دفءٍ نبيلًا، وكلّ ابتسامةٍ صادقة. وكانت تنظر إلى العالم بعينٍ لم تُعلّم بعد أن تشكّ.

وبين دفاترها وكتبها وأحلامها المؤجّلة، ظلّت ميرا تحمل في داخلها شيئًا لا تسمّيه: توقًا إلى أن يهتمّ بها

أحدٌ دون مقابل. ولم تكن تدري أنّ هذا التوق، الذي
تُخفيه تحت صمتها، هو بالضبط ما سيراه من سيقترّب
منها قريباً؛ كما يرى الصيَّاد في الماء الهادئ ما لا يراه
المارّة على الشاطئ.



«الصديق الصادق لا يسألك: ما قيمتك عندي؟
بل يُشعرك بقيمتك دون أن تسأل.»

الفصل الثامن

أول دفء

لم يأتِ ذلك الزميل بصخبٍ ولا بحدثٍ يُلفت النظر؛ جاء كما يجيء النسيم قبل العاصفة: لطيفًا، ساكنًا، يبدو بريئًا من كل نية. كان يجلس على مقربةٍ منها في القاعة، وقد لاحظت — دون أن تعلق — أنه يرمقها بنظرةٍ هادئة حين تمرّ، ويرفع رأسه إذا تحدّثت، وأنه يتذكّر ما قالته قبل يومين. وكان ذلك كلّه جديدًا عليها حدّ الارتباك.

بدأ الأمر بأسئلةٍ صغيرة: «هل فهمتِ الدرس؟» ثم «هل أنت بخير؟ تبدين متعبة»، ثم «ماذا أكلتِ اليوم؟». وكانت ميرا تتلقّى هذه الأسئلة كما يتلقّى الضامى قطراتٍ من ماءٍ بارد، دون أن تسأل من أين جاء الماء ولا إلى أين يقود. لم يكن أحدٌ قد سألها عن تعبها منذ زمن، ولم يخطر ببال أحدٍ أن يسأل إن كانت قد تناولت

طعامها. وحين سمعت هذه الأسئلة منه، شعرت بأن شيئاً في داخلها يلين.

وكان يلاحظ أدق التفاصيل: لون عينيها حين تبكي دون أن تُظهر، وطريققتها في إمساك القلم حين تقلق، وصمتها حين يصعب عليها السؤال. وكان ينقل إليها ملاحظاته بصوتٍ خافت كأنه يُسرّ لها بسرّ: «لاحظتُ أنّك تتغيّرين حين تمرّين قرب الباب». وكانت ميرا تذوب في هذه الملاحظات؛ ففي عالمها الذي لا يرى أحدٌ فيه شيئاً، كان أن يراها أحدهم يشبه معجزةً صغيرة.

ومضت أسابيع، ثم شهور. صارا يمشيان معاً بعد الدرس، ثم يتكلّمان عبر الرسائل ليلاً، ثم يتبادلان الكلمات التي تحمل من المعاني أكثر ممّا تُظهر. وبدأت ميرا تنتظر الصباح لألّاّه يوم عملٍ جديد، بل لأنّ فيه وجهاً سيسألها عن حالها. تبدّلت نظرتها إلى مرآتها؛ صارت تُمعن في

تسريح شعرها، وتبتسم دون سببٍ ظاهر، وتشعر أنّ
العالم من حولها قد غيّر لونه قليلاً.

وكان كل ذلك يحدث في السرّ؛ إذ لم يكن لها أن تخبر
أحدًا في البيت بما يدور، فهي تعرف جيّدًا أنّ الجواب
سيكون كالعادة: صراخ وإهانة وتحقير. وهكذا صار هذا
الدفع الجديد ملكها وحدها، كنزًا مدفونًا في قلبها
تتحسّسه في الليل وتُخفيه في النهار. وكانت تظنّ أنّ
السريّة جزءٌ من جماله، ولم تدرك أنّها أيضًا جزءٌ من
خطره: فكلّ ما يعيش في الظلّ يصعب أن يُراقب أو
يُنقذ منه.

«حينما يجوع الأهل ابنتهم عاطفيًا، فإنهم يتركونها
فريسةً سهلةً لكلّ عابرٍ يمنحها كسرةً خبزٍ من
الاهتمام المزيّف. إنّ الجوع للأمان هو أسرع طريقٍ
للوقوع في فخّ الطغاة.»

لقد وقعت ميرا في الحبّ كما يقع المنهك في النوم:
دون مقاومة ودون حساب. ولم يكن ذلك غباءً منها، بل
نتيجةً طبيعيةً لحياةٍ خلت من الحنان؛ فالفتاة التي لم
تجد الاهتمام في بيتها ستبحث عنه خارجه، وستتعلق
بأول من يمنحها إيّاه، لا لأنها ساذجة، بل لأنّ الجوع لا
يسأل عن مصدر الطعام.



«القلب الذي حُرم الدفء طويلاً قد يحسب كلّ
نارٍ دفئاً؛ فلا تلمّه، بل علّمه كيف يفرّق بين نارٍ
تُدْفئ ونارٍ تحرق.»

حين قال: أَحَبُّكَ

بعد نحو سنةٍ من التودّد والتقرّب، جاءت اللحظة التي كانت ميرا تحلم بها وتخافها في آنٍ واحد. كان المساء قد بدأ يُرخي ستائره على الشارع، وهما يمشيان بعد الدرس، حين توقّف فجأةً ونظر إليها بنظرةٍ مختلفة، فيها من الجدّ ما لم يكن فيها قبل. وقال لها بصوتٍ واضح: إنّه أحبّها. أحبّها حبًّا كبيرًا، لا يشبه إعجاب الأيام العابرة، وإنّه لا يتخيّل حياته دونها.

ظلّت ميرا واقفةً لا تعرف ماذا تقول. كان قلبها يخفق كأنّه طائرٌ سقط في قفص، وكانت الكلمات كلّها قد هربت منها. لم يقل لها أحدٌ في حياتها شيئًا كهذا. لم يقل لها أحدٌ إنّها مهمّة، أو إنّ وجودها يُحدث فرقًا، أو إنّ حياةً بلا حضورها ستكون ناقصة. كانت تلك الجمل —

بالنسبة لفتاةٍ جاعتِ سنواتٍ — بمثابةٍ وليمةٍ تُقدّم فجأةً
على مائدةٍ فارغة.

وفي تلك الليلة، حين عادت إلى البيت، لم تشعر بتعب
اليوم ولا بثقل الواجبات. صعدت إلى غرفتها وهي تكاد
تطير، وأغلقت الباب وجلست على السرير تعيد في
رأسها كل كلمة سمعتها. ولأول مرّة منذ سنين، لم تكن
دموعها حزينّة. بكت، لكنّ البكاء كان مختلفًا: كان بكاءً
من وجد أخيرًا ما ظنّ أنّه لن يجده أبدًا. وقالت لنفسها:
«ربما هناك من يراني حقًا».

وهكذا، لقيت ميرا الاهتمام والدلال والحب؛ شيئًا غريبًا
عليها، لكنّه حلو حلاوة الماء لمن أنهكه العطش. وكانت
تتعلّق به كما يتعلّق الطفل بأول يدٍ تمتدّ إليه. كان
يسألها عن تفاصيل يومها ببطءٍ وحنان: ماذا فعلت؟ من
ضايقت؟ هل سمعت كلمةً جارحة؟ وكانت تُجيبه بما

تيسّر، وكلّما أجابت اتّسعت المسافة التي تفتحها له إلى قلبها.

وسألها مرّةً عن أهلها، بصوتٍ هادئٍ يوحي بالقلق عليها لا بالفضول: «كيف يعاملونك؟». كان السؤال بسيطًا، لكنّه فتح في داخلها بابًا ظلّ موصدًا سنين. لم يسألها أحدٌ هذا السؤال من قبل. ولم تتردّد. بدأت تحكي له، في البداية بحذر، ثم بتدفّقٍ لا تستطيع إيقافه، كمن فتح سدًا بعد سنواتٍ من الاحتباس.

حكّت له عن خوفها من أبيها، وعن وقع خطواته في الممرّ. وعن أمّها التي تلين أحيانًا وتقسو أغلب الأوقات. وعن الصمت المفروض عليها، وعن «اصمتي» التي تلاحقها كظلّها. وعن الأعمال التي لا تنتهي، وعن اليوم الذي نسيت فيه شيئًا واحدًا فانقلب البيت عليها. وعن ليالي البكاء في الوسادة، وعن الوحدة التي تحيط بها

كسورٍ من زجاج. حكّت له قصّتها كلّها، منذ أولها إلى آخرها.

وكان يُصغي. كان يومئ برأسه، وتظهر على وجهه علامات التأثّر، ويقول لها بين وقتٍ وآخر: «كم أنتِ قويّة»، و«لا تستحقّين ما يحدث لكِ». وكانت ميرا — وهي ترى في عينيه صورتها منعكسةً بالرحمة — تشعر أنّها أخيرًا وجدت وطنًا صغيرًا تلجأ إليه. لم يخطر ببالها أنّ بعض الأذان تُصغي لتجمع، لا لتحتضن.

ولأنّها سلّمت مفاتيح قلبها دفعةً واحدة، كما يُسلّم الطفل يده لمن يدلّه على الطريق، لم تعرف أنّ بعض الأيدي تُمدّ لتقود، وبعضها لتقتاد. وهذه هي حكمة الحذر التي لم يُعلّمها إيّاها أحد: أنّ الأسرار لا تُوهب جملةً واحدة، وأنّ الثقة تُمنح بالتدرّج وتُختبَر بالأفعال.



«ليس كلّ من أصغى إليك أحبك؛ فبعض الأذان
تُصغي لتجمع، لا لتحتضن.»

حين انقلب الوجه

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى انكشف الوجه الآخر. وكان أقسى ما في الانكشاف أنّه لم يأتِ تدريجيّاً ليهيئها، بل جاء ضربةً واحدة. بدأ الأمر بتغيّرٍ طفيف: ردٌّ متأخّر على رسالة، ونبرةٌ أبرد في الحديث، وغيابٌ لم يُفسّر. حاولت ميرا أن تقنع نفسها بأنّ الأمر طبيعي، فكلّ الناس يمرّون بأيامٍ سيئة. لكنّ قلبها — الذي تعلّم من بيتها أن يتحسّس الخطر قبل وقوعه — كان يهمس لها بأنّ شيئاً ما قد انكسر.

ثم جاء اليوم الذي لم يعد فيه مجالٌ للتأويل. كان يقف أمامها بوجهٍ لم تعرفه: وجهٍ خالٍ من الدفء الذي كان يغلفه كلّ ما مضى، وعينين تقولان إنّ كل ما كان لم يكن إلا تمهيداً. تركها، فجأةً ودون مقدّمات، وبعبارةٍ

جافّة لا تحمل شيئاً من الأسف. وكان ذلك وحده كافياً
ليُحطّم قلبها. لكنّ ما تلاه كان أشدّ.

فبعد أيام، عاد إليها، لا ليعتذر ولا ليشرح، بل ليُهدّد. قال
لها — بلهجة هادئة تُخفي ما وراءها — إنّه يعرف
الكثير عنها: عن خوفها من أبيها، وعن قسوة أمّها، وعن
كل ما حكته له في تلك الليالي. وإنّه إن لم تعطه مالاً،
فسيزهد إلى أبيها ويخبره بكل شيء.

وقفت ميرا أمامه وقد تجمّد الدم في عروقها. كأنّ الأرض
ابتلعت صوتها. لم تصدّق في البداية أنّ هذا هو نفسه
الذي جلس معها يوماً يسأل عن حالها ويقول إنّ حياته لا
تستقيم دونها. وكأنّ كل جملةٍ حنونةٍ سمعتها منه صارت
في لحظةٍ دليلٍ إدانةٍ ضدها، وكأنّ كل ثقةٍ منحتها إيّاه
كانت قرصاً يُطالب به بفوائده.

لقد حوّل أسرارها إلى سلاح. كلّ ما أودعته عنده من خوفٍ ووجعٍ وضعفٍ، صار الآن خنجرًا يلوّح به في وجهها. وما كان أمانةً في قلبها صار عنده ثمنًا يحتفظ به ليومٍ يحتاجه. وفي تلك اللحظة، أدركت ميرا — بوضوحٍ مؤلم — أنّ كلّ ما شعرت به كان لعبةً مُحكمة؛ وأنّ ذلك الحبّ الذي ملأ أيامها دفنًا كان فخًا تُصب بعنايةٍ، وأنّ الذي أصغى إليها لم يكن يسمعها، بل كان يُسجّل.

ومن أقصى ما في هذه الصدمة أنّ ميرا لم تكن تخاف من المال أو من التهديد وحدهما؛ بل كانت تخاف من أن تتحوّل الصورة التي رسمتها لحياتها إلى حقيقة: أن يعرف أبوها، وأن ينفجر كل ما كانت تخشاه سنين. فقد وجد المبتزّ أخطر نقطة ضعفٍ فيها: الخوف الذي زرعه بيتها فيها قبل أن يقابله.

وهكذا تعلّمت ميرا، في سنٍّ مبكرة، درسًا لم تكن تريد أن تتعلّمه: أنّ الثقة إذا وُضعت في غير موضعها صارت سلاحًا في يد من لا يستحقّها، وأنّ الحبّ الذي يطلب ثمنًا ليس حبًّا بل صفقة، وأنّ بعض الذين يقتربون منك لا يريدون قلبك بل ما يمكن أن يكسبوه منه.



«الثقة إذا وُضعت في غير موضعها صارت سلاحًا
في يد من لا يستحقّها.»

خوف بلا ملامح



بعد ذلك اليوم تغيّر كل شيء في عالم ميرا. لم يعد في الدنيا شيء يُشبه ما كان، حتى الأشياء المألوفة بدت كأنّها غريبة عنها: ضوء الصباح، وصوت الجيران، وحتى رائحة الخبز التي كانت تعرفها منذ طفولتها. كان الخوف قد سكن صدرها كحجرٍ لا يتحرّك، يزداد ثقلًا مع كل ساعة، ويضغط على أنفاسها حتى صارت تتنفس بصعوبة.

كان أصعب ما في الخوف أنّه بلا ملامح. لم يكن لها عدوّ تواجهه في ساحة، ولا خطرٌ تراه بعينها، بل ترقّب دائمٌ لشيءٍ قد يحدث في أي لحظة: رنة هاتف، أو طريقة باب، أو اسمٌ يُذكر في حديثٍ عابر. وكانت في كل مرّة تسمع فيها خطوات أبيها، ترتجف أطرافها، وتتصبّب جبهتها عرقًا باردًا، وتظنّ أنّ تلك اللحظة هي النهاية.

وفقدت ميرا نومها. كانت تستلقي في السرير وعيناها مفتوحتان على العتمة، تعدّ الدقائق، وتتخيّل أسوأ المشاهد: أبوها يُصغي إلى ما يقوله ذلك المبتزّ، وجهه يتغيّر، والبيت يتحوّل إلى عاصفة. وحين يغلبها التعب أخيراً وتغمض عينيها، توقظها كوابيس لا تذكر تفاصيلها، لكنّها تترك في صدرها ارتجافاً يمتدّ إلى الصباح.

وفقدت شهيتها. كانت تجلس إلى المائدة وتحرّك الطعام في صحنها دون أن تتناول منه شيئاً. كانت المعدة المنقبضة تُغلق كل أبواب الجوع، وكان مجرّد التفكير في لقمةٍ يُشعرها بالغثيان. ولم يلاحظ أحدٌ في البيت شيئاً؛ إذ لم يكن هناك من يُدقّق في وجهها أو في صحنها. وبهذا كان الإهمال الذي ملأ حياتها شريكاً غير مرئيّ في عذابها: فلو انتبه أحدٌ لتغيّرها لربما انفرجت الأمور.

وبدأ جسدها يذبل. نحل وجهها، وظهرت تحت عينيها
ظلالٌ داكنة، وصار صوتها خافتًا كأنه يأتي من مكانٍ
بعيد. وكانت في الصباح تقف أمام المرأة الصغيرة خلف
الباب فلا تعرف تلك الفتاة التي تنظر إليها. كانت تشبه
زهرةً نسيها الماء: لا تزال واقفةً على ساقها، لكن أوراقها
تتدلى بلا حياة.

وتشتت تركيزها في المعهد، فلم تعد تفهم ما يُشرح، ولا
تستطيع أن تُمسك قلمها دون أن ترتجف أصابعها.
صارت تتأخر في الإجابة، وتنسى ما حفظته، وتجلس في
مقعدها كأنها غائبةٌ حاضرة. وكانت صديقتها تلاحظ ذلك،
فتنظر إليها بقلقٍ صامت، وتنتظر أن تتكلم.

ولم يكن في ذلك كله ما يُدهش من يفهم النفس
البشرية: فحين يُحاصر الإنسان بخوفٍ لا يستطيع البوح
به ولا الهرب منه، يتحوّل الخوف إلى مرضٍ يأكل الجسد

من الداخل. والفتاة التي تحمل سرّاً ثقيلاً وحدها تشبه
من يحمل صخرةً على ظهره في طريقٍ طويل بلا
استراحة. وقد كانت ميرا على وشك السقوط تحت ثقلها.



«الخوف الذي لا يجد من يشاركنا إيّاه يتحوّل مع
الوقت إلى جدارٍ نسكن بداخله.»

لماذا تقع الجائعة في الفخ؟

قد يسأل قارئ متعجل: كيف وثقت ميرا بمن لم تعرفه إلا شهوًّا؟ وكيف سلّمت سرّها كله؟ ألم تكن تعرف أنّ الناس قد يغدرون؟ والجواب أنّ هذا السؤال — على وجاهته الظاهرة — يغفل أصل المسألة. فالفتاة التي نشأت في برد الإهمال لا تقيس الدفء بميزان الحذر، بل بميزان الحاجة. ومن اشتدّ جوعه لا يسأل عن مصدر الخبز.

ومن يُجيد الابتزاز العاطفي يعرف هذا جيّدًا. إنّه لا يبحث عن الأقوياء الذين تحميهم بيوتهم، بل عن القلوب التي تتوسّل الاهتمام. يرصد من تُرى وحيدة، ومن لا يسأل عنها أحد، ومن يُقابَل كلامها بالتجاهل. ثمّ يقدّم لها ما حُرمت منه بالضبط: الإصغاء، والدلال،

والسؤال عن التفاصيل. وكلّما أعطّاها أكثر، ازداد تعلّقها، وصارت حاجتها إليه أشدّ من حذرّها منه.

وهو في كلّ ذلك يجمع المعلومات كما يجمع الصياد خيوط شبكته. لا يسأل عن أسرار الفتاة لأنّه يحبّها، بل لأنّه يريد أن يعرف أين مكن الخوف فيها، وأيّ باب في قلبها يمكن أن يُغلّق عليها إذا ضُغط عليه. وفي حالة ميرا كان مكن الخوف واضحًا: أبوها. فحين عرف ذلك، صار عنده مفتاح قفصها.

ولذلك فإنّ الخطأ الذي وقعت فيه ميرا ليس خطأ الثقة، بل خطأ التوقيت والطريقة. فالثقة أمرٌ نبيل، لكنّها تُعطى تدريجيًّا وتُختبَر بالأفعال. ومن علامات الخطر أن يتقرّب أحدٌ إلى سرّك قبل أن يُثبت أنّه يستحقّه، وأن يطلب منك التفاصيل الدقيقة عن ضعفك وخوفك قبل

أن يُريك أنّه يحميها. فمن أحبك حقًا لن يستعجل
مفاتيح قلبك.

وأهمّ ما يقال هنا: ليست الضحية هي المذنبّة. لا يجوز
لأحد أن يقول لميرا: «لو كنتِ حذرةً لما حدث»؛
فالمسؤول عن الابتزاز هو المبتزّ وحده، والمسؤول عن
الجوع الذي سهّل الفخّ هو من أجاع. وأيّ فتاةٍ تقع في
مثل هذا الموقف، لا تحتاج إلى لوم، بل إلى يدٍ تمتدّ
إليها وتقول: «لستِ وحدك، وسنجد حلًّا».



«من أجاع قلبًا فقد فتح الباب لكلّ من يحمل
خبزًا مسمومًا.»

الفصل الثاني عشر

أقرب صديقة

جاء اليوم الذي لم تعد فيه ميرا قادرةً على الاحتمال. كان الصباح شاحبًا، والمعهد شبه خالٍ في تلك الساعة المبكرة، وكانت جالسةً وحدها على الدرج حين جاءت صديقتها المقرّبة وجلست إلى جانبها. لم تقل شيئًا في البداية. نظرت إلى وجه ميرا الشاحب، وإلى عينيها المحمرّتين، ثم وضعت يدها على يدها بهدوء، وقالت: «لن أسألك إن كنتِ بخير؛ فقد عرفتُ الجواب. لكنني هنا إن أردتِ أن تحكي».

كانت هذه الجملة — جملةٌ بسيطةٌ لا تتجاوز بضع كلمات — كافيةً لتكسر السدّ. انهارت ميرا باكيةً، لا بكاءً صامتًا كما اعتادت، بل بكاءً مسموعًا يهزّ كتفيها،

كأن جسدها كله يُفرغ ما احتبسه. واحتضنتها الصديقة
دون أن تقول كلمة، وتركتها تبكي كما تشاء.

وحين هدأت، بدأت تحكي. روت لها كل شيء: من أول
لقاء مع ذلك الزميل، إلى ما قاله لها، إلى ثقتها به، إلى
ما انكشف بعد ذلك، إلى التهديد الذي يخنقها منذ أيام.
وكانت الكلمات تخرج منها متقطعةً مرتعشة، لكنها
كانت تخرج؛ وكان كل ما تقوله يخفّ من ثقل الصخرة
على صدرها شيئاً فشيئاً.

وأصغت الصديقة بكلّ جوارحها. تغيّرت ملامح وجهها
أكثر من مرّة؛ دهشةً، ثم غضب، ثم حزنٌ عميق. ولم
تقاطعها بحكمٍ ولا بلوم. وحين انتهت ميرا، سكّنت
الصديقة قليلاً، ثم قالت بصوتٍ واضح: «يجب أن تخبري
أمك بكل شيء. هذا أكبر من أن تحمله وحدك. هذه
أمك، وستقف إلى جانبك».

ولم تكن الصديقة سيئة النية؛ بل كانت تقول ما يُقال عادةً في مثل هذا الموقف، وما يُفترض أن يكون صحيحًا: أنّ الأمّ هي الملاذ الأول. وكانت تقيس الأمور بمقياس بيتها هي، حيث الأمّ حُضٌّ وسند. ولم يخطر ببالها أنّ أمّ ميرا ليست كأُمّها، وأنّ الباب الذي تنصحها بطرقه قد يكون موصدًا من الداخل.

وترددت ميرا. كان في داخلها صوتٌ قديمٌ يهمس: «لا تفعل، سيحدث ما تخافين». لكنّ صوتًا آخر أحدث ضجيجًا أكبر: ذلك الأمل القديم الذي لم يمُت رغم كل شيء، أمل الطفلة التي تنتظر على الباب. «ربما هذه المرّة ستختلف. ربما حين ترى أمّي أنني في خطرٍ حقيقي، ستنسى كل شيء وتحتضني». وكان هذا الأمل — رغم هشاشته — أقوى من الخوف.

فاقتنعت. أخذت نفسًا عميقًا، ومسحت دموعها بكمّها،
وقالت لصديقتها بصوتٍ يرتجف: «سأفعل». ثم قامت،
وحملت حقيبتها، ومشّت نحو البيت وهي لا تدري أنّها
تمشي نحو أقدس لحظةٍ في حياتها.



«النصيحة الصادقة قد تكون خاطئة حين تُقاس
بمقياس بيتٍ غير بيتك.»

الباب الذي أغلق

دخلت ميرا البيت وقلبها يخفق كطبلٍ بعيد. كانت الأم في المطبخ، منشغلةً بشيءٍ ما، وقد أعطتها ظهرها. وقفت ميرا في الباب لحظةً طويلة، تُجمّع ما بقي لها من شجاعة، ثم نادتها بصوتٍ خافت: «ماما...». التفتت الأم نصف التفاته، وقالت بنبرتها المعتادة: «ماذا؟». وهنا بدأت ميرا تحكي.

حكّت لها كل شيء من الأول، كما حكّت لصديقتها. قالت لها إنّها تعرّفت إلى زميلٍ في المعهد، وإنّه اهتمّ بها وأحبّها، وإنّها وثقت به وحكّت له عن حياتها. وإنّه تركها، ثم صار يهدّدها بأن يُخبر أباهَا إن لم تعطه مالاً. وإنّها خائفة، لا تنام ولا تأكل، وإنّها لا تعرف ماذا تفعل.

كانت تحكي وصوتها يتقطّع، ودموعها تسيل دون أن تمسحها.

وكانت تنتظر. ماذا كانت تنتظر؟ ربما عناقًا يلقيها. ربما كلمةً تقول: «لا تخافي، أنا معك». ربما — وكان ذلك أحلى ما تحلم به — أن تقول لها أمها: «أنت ابنتي، ولن أسمح لأحد أن يؤذيك». كان في أعماقها طفلةٌ صغيرة تمدّ يديها نحو الأم، وتنتظر أن تُرَفَّعَ إلى حضنٍ لم تعرفه إلا نادرًا.

لكن الأم لم تحتضنها. أغلقت الباب في وجهها. حرفيًا، وبكلّ ما في الكلمة من معنى: دفعت باب المطبخ بيدها فأغلق بين ميرا وبينها بصوتٍ مكتوم. وقالت من خلفه بنبرة حادة لا تحمل ذرةً من الحنان: «هذه مشاكلك، حلّوها بعيدًا عني، ولا تُدخليني في قصصك».

ثم فتحت الباب مجدداً لتُكمل. أمطرت ميرا بوابلٍ من التوبيخ والإهانة: «كيف تفعلين هذا؟ ألم يكفِ ما نحن فيه؟ هل هذه هي التربية؟ من أين لكِ هذا الوقاحة؟». كانت الكلمات تتساقط عليها كما تتساقط حجارةٌ على شخصٍ جريح. وكانت ميرا واقفةً لا تتحرك، وقد جفت دموعها فجأة، كأنّ الصدمة سحبت منها كل ما فيها.

لم تسألها: هل أنت بخير؟ هل أنت خائفة؟ هل أذاك؟ من هذا الذي يجرو؟ كيف نحميك؟ لم يكن في فم الأم سؤالٌ واحد ينقذ، بل أحكامٌ تُدين. وكأنّ الابنة هي المذنبة، وكأنّ الخوف الذي ارتجفت به جريمةٌ تستوجب العقاب. وهذا أقسى ما في الأمر: أنّ ميرا لم تُخذل فقط، بل اتُهمت.

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ. ففي اليوم التالي أو الذي بعده، ذهبت الأم وأخبرت خالة ميرا بما حدث. فأتت

الخالة إلى البيت واجتمعتا على ميرا في الصالة. جلست الخالة على الأريكة، وقد ارتسم الغضب على وجهها، وبدأت تُحدّث ميرا بصوتٍ كالقضاء. غضبت عليها، وأثبتتها، ودعت عليها بما لا يليق أن تدعو به خالةٌ على ابنة أختها. وكانت الأمّ تجلس بجوارها وتؤيّدُها بإيماءٍ صامتة.

لم يسألها أحدٌ منهم: من الذي هدّدكِ؟ ماذا فعل؟ كيف حالكِ؟ لم يكن في تلك الجلسة مكانٌ للأسئلة التي تُنقذ، بل للأحكام التي تُدين. كانت ميرا تنظر إلى وجوههم واحدًا واحدًا، فلا ترى فيها إلا الجدران نفسها التي رأتها طوال حياتها: صمّاء، عمياء، مغلقة.

وفي تلك اللحظة لم يُغلَق الباب في وجه ميرا فقط، بل أُغلقت معه آخر نافذةٍ كانت تُطلّ منها على أملٍ قديم. فالطفل الذي يركض إلى أهله وقت الشدّة فيجد الباب

موصداً يتعلّم درساً قاسياً: أن لا ملاذ له، وأنّ عليه أن يكون ملاذ نفسه. وهذا الدرس، وإن كان قاسياً، كان بداية الطريق.



«أقصى ما في الخذلان أنه يأتي من الباب الذي ظننته آخر ملاذ.»

حين لا تكون الأمّ ملاذًا

لا يقصد هذا الكتاب أن يحاكم أمًا بعينها، ولا أن يجرد الأمّهات من رحمتهم. فكثيرٌ من الأمّهات اللواتي يقسون على بناتهنّ ويُغلّقن في وجوههنّ الأبواب لم يجدن هنّ أنفسهنّ من يفتح لهنّ باب الحنان يومًا. فيورثن ما ورثن، كما تُورث الأمراض والأمثال. وربما كانت أمّ ميرا نفسها طفلةً تُسكّت وتُهمل، فكبرت وهي لا تعرف طريقةً لحبّ ابنتها غير الطريقة التي عُولمت بها.

غير أنّ تفسير القسوة لا يعني تبريرها. فالابنة التي تطرق باب أمّها في أشدّ لحظات خوفها لا تسأل عن تاريخ الأمّ النفسي، بل تنتظر ما تنتظره كل ابنة: أن تُحتَضَن. وحين تُغلّق الأبواب في وجهها، لا يخفّف ألمها أن تعرف

أَنَّ الأمَّ كانت مجروحة. فالتفسير يُريح العقل، أمّا القلب فيحتاج إلى فعل.

ولو سألنا: ما الذي كان ينبغي أن تفعله أمّ ميرا في تلك اللحظة؟ لوجدنا الجواب بسيطًا إلى حدّ الألم. كان ينبغي أن تسمع قبل أن تحكم. أن تسأل: هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ في أمان؟ من الذي هدّك؟ ثم تقول الجملة التي تُغيّر مصير الأبناء: «أنا معكِ». ثم، بعد أن تهدأ الابنة، تتحدّثان عمّا يجب فعله، وكيف تُحمى من الابتزاز، ومن يمكن أن يساعد. هذا كلّ ما في الأمر؛ وكلّ ما في الأمر كان هو الذي لم يحدث.

وهذا ما يجب أن يعرفه كل أبٍ وأمّ: أَنَّ الأبناء حين يأتونكم بأخطائهم أو بمخاوفهم، فهم لا يأتون ليُحاسبوا، بل ليُنقذوا. إنَّ الطفل الذي يجروء على أن يخبركم بما يخيفه يكون قد قطع مسافةً طويلة من الشجاعة؛ فإن

قابلتموه بالتوبيخ علّمتموه ألا يأتیکم ثانية، وألا يثق
بأحدٍ حين يقع في خطر. وربما يلجأ في المرة التالية
إلى من لا يستحقّ، أو إلى الصمت الذي قد يكلفه كثيرًا.
وما حدث لميرا يُعلّمنا أنّ الأمان الأسري ليس جدرانًا
ولا سقفًا، بل جوابٌ واحد على سؤالٍ واحد يسأله كل
طفلٍ دون أن ينطق به: «إن وقعتُ، هل ستمسكون
بي؟». فإن كان الجواب «نعم»، نشأ إنسانٌ آمن. وإن
كان «لا»، نشأ إنسانٌ يظنّ أنّ عليه أن يُمسك بنفسه
وحده، وأن العالم كلّهُ مُعادٍ حتى يثبت العكس.



«الابن لا يطلب من والديه أن يكونا كاملين؛
يطلب فقط أن يكونا حاضرين حين يقع.»

ليلة القرار



في تلك الليلة لم تبكِ ميرا كما اعتادت. دخلت غرفتها بعد انقضاء الجلسة، وأغلقت الباب، ثم جلست طويلاً على أرض الغرفة وظهرها إلى السرير. كانت الأضواء مطفأة، وكان البيت قد عاد إلى هدوئه المعتاد كأن شيئاً لم يحدث. وفي صدرها هدوءٌ غريب، هدوءٌ من استنفد كل ما عنده من دموع، فلم يبقَ فيه ما يبكيه.

كانت تنظر إلى الفراغ أمامها، وتشعر بأنّ في داخلها شيئاً قد تغيّر نهائياً؛ كأنّ خيطاً رفيعاً ظلّ يربطها بالعالم القديم قد انقطع. لم يكن غضباً ولا حقداً؛ كانت ببساطةٍ قد فهمت. فهمت أنّ ما انتظرته من أهلها طوال سنواتٍ لن يأتي. وأنّ الأم التي حلمت بها لم تكن موجودة إلا

في خيالها. وأنّ الوقوف عند الباب ينتظر فتحه هو أطول طريقٍ إلى اليأس.

وهناك، بين أنقاض أملٍ أخير، اتخذت قرارًا لم تتّخذهُ قطّ في حياتها. قالت لنفسها بصوتٍ لا يسمعه أحد: «سأعيش عزليّ، وسأواجه مشاكلي وآلامي بمفردي، وسأعتمد على نفسي وحدي». لم يكن قرارًا مفعماً بالحماسة، بل كان قرارًا هادئًا كالحجر الذي يستقرّ في قاع الماء: ثقيلًا وثابتًا.

ولم يكن في هذا القرار انتحارٌ عاطفيّ، كما قد يُظنّ، بل كان بدايةً ولادةٍ جديدة. فالعزلة التي اختارتها ميرا لم تكن هروبًا من الحياة، بل انسحابًا من علاقاتٍ تستنزفها لتعيد بناء نفسها في هدوء. وهذا الفرق دقيق لا يفهم إلا لمن مرّ به: أن تعتزل لأنك تهرب، وأن تعتزل لأنك تحمي ما بقي منك.

وفي ذلك الليل، حين أطلّ الفجر من خلف الستائر، شعرت ميرا لأول مرّة بخقّة غريبة. كأنّها وضعت عن كتفها حملاً لم تكن تدري أنّه يُثقلها: حمل الانتظار. لم تعد تنتظر أن يفهمها أحد، ولا أن يحنو عليها أحد، ولا أن يرى تعبها أحد. صارت تعرف أنّ عليها أن تكون عيناها ويدها وسندها. وكان ذلك — على قسوته — أول شعورٍ بالحرية تعرفه.

نهضت من الأرض، وتوجّهت إلى النافذة، وفتحتها. دخل هواء الصباح البارد فملاً صدرها. نظرت إلى السماء التي بدأت تتلوّن بخيوط الضوء الأولى، وإلى الزقاق الذي يستيقظ ببطء، وإلى حبال الغسيل المتدلّية من الشرفات. كان العالم كما هو، لكنّها هي التي تغيّرت. ولأول مرّة منذ سنوات، شعرت أنّ لها فجرًا يخصّها وحدها.



«حين ينقطع الانتظار، يبدأ الطريق.»

ولادة «لا»



في صباح اليوم التالي استيقظت ميرا وهي لم تعد كما كانت. لم يكن في ملامحها تغييرٌ ظاهر، لكن شيئاً في نظرتها وفي مشيتها صار مختلفاً: كأن الأرض أصلبت تحت قدميها. وحين جاء الطلب الأول من أمها — طلبٌ صغير يخص شيئاً في البيت — وقفت ميرا لحظةً، ثم قالت، بصوتٍ مرتعشٍ لكئه واضح: «لا».

كانت الكلمة قصيرة، لا تتجاوز حرفين، لكنّها وقعت في الغرفة كصاعقة. نظرت الأم إليها بدهشةٍ مصحوبةٍ بغضب، كأنّها تسمع لغةً غريبة. وحاولت أن تعيد الجملة بنبرة أعلى، فكررت ميرا: «لا، لن أفعل». ثم أدارت ظهرها ومضت. وكان قلبها يخفق كأنّها ركضت ميلاً، لكنّ في داخلها فرحةٌ صغيرة لم تعرف لها اسماً.

قالت «لا» أول مرّة بصوتٍ مرتعشٍ كمن يمشي على جليدٍ رقيق، ثم قالتها ثانيةً بثباتٍ أكبر، ثم ثالثةً حتى صارت كلمتها الأثيرة. لا لما لا تريد، لا لما يفوق طاقتها، لا لما يؤذيها، لا لما يُهينها. وكلّ «لا» كانت لبنةً في جدارٍ تبنيه حول ما تبقى منها. ولم يكن الجدار لإبعاد العالم، بل لحماية الحديقة الصغيرة التي بدأت تنبت في داخلها.

وكان أهلها، طوال السنوات الماضية، يُقيّمونها بعشرةٍ من عشرة؛ عشرةً كاملة لأنها لا تردّ ولا تعترض ولا تعصي. كانت الفتاة المثالية، المطيعة، التي لا تُتعب أحداً. فلمّا بدأت تقول «لا» أخذ التقييم ينقص. تسعة، ثم ثمانية، ثم سبعة، وتهاوى الرقم يوماً بعد يوم، حتى بلغ الصفر. صارت «عاقّة»، و«متمردة»، و«لا فائدة منها»، وتبدّلت النظرات إليها من التجاهل إلى الاتهام.

وكان ذلك الصفر أعظم اكتشافٍ في حياتها. فقد أدركت أنّ العشرة لم تكن يومًا لها، بل لطاعتها؛ لم تكن تقيّمًا لإنسانة، بل لخدمةٍ تُقدّم. وأنّ كلّ ما سمّوه «حبًّا» لم يكن إلّا رضًا عن وظيفةٍ تُؤدّى بإتقان. وحين توقّفت الوظيفة، توقّف الرضا. ولو كان ذلك الحبّ حقيقيًّا، لما احتاج إلى طاعةٍ مطلقةٍ كي يبقى.

والغريب أنّ ميرا لم تحزن. لقد ظنّت دائمًا أنّها لو خسرت رضاهم لانهارت، فإذا بها حين خسرتَه تقف أخفّ وأقوى. ما عاد يهمّها ما يقوله العالم، ولا ما يظنّه أهلها. وماذا بقي لديهم ليأخذوه منها ولم يأخذوه من قبل؟ لقد تحرّرت من الخوف الذي كان يقيدها أكثر مما تقيدها الأسوار، وصار الخوف الذي كان يسكنها يتقلّص يومًا بعد يوم.

ولا بدّ أن نقول إنّ هذا التحرّر لم يكن بلا ثمن. فمن
اختار أن يقول «لا» بعد عمرٍ من «نعم» سيدفع ثمن
العزلة وسوء الظنّ والغضب. وكان في البيت جوٌّ أبرد
من قبل، ونظراتٌ أحدّ، وصمتٌ أطول. لكنّ ميرا
اكتشفت أنّ هذا الثمن، مهما بدا باهظًا، أرخص بكثير
من أن تعيش حياتها كلّها خادمةً لرضا الآخرين.

وكانت تقول لنفسها كلّما ضاقت: «لقد دفعْتُ ثمن
الطاعة سنواتٍ طويلة ولم أنل شيئًا. فلأدفع الآن ثمن
الحرية، لعلني أنال شيئًا». ولم يكن ذلك تمرّدًا أجوف،
بل قرارًا ناضجًا اتخذته بعد أن رأت بعينيها ما تعنيه
الطاعة التي لا تُحمي صاحبها.



«حين يصبح رضا الناس عنك مشروطًا بصمتك،
فسقوط تقييمهم لك شهادةٌ على صحتك، لا على
نقصك.»

ثمن الحرية وجمالها

يظنّ كثيرون أنّ الحرّية، حين تأتي، تأتي مصحوبةً بالفرح والتصفيق. لكنّ من مرّ بها يعرف أنّها تأتي أول ما تأتي مصحوبةً بالخوف والوحدة وطعمٍ غريب في الفم. فمن عاش عمره مقيّدًا لا يعرف، فجأةً، كيف يمشي دون قيد. وقد أحسّت ميرا في الأسابيع الأولى بعد قولها «لا» بنوعٍ من الدوار؛ كأنّها تقف على حافةٍ لم يكن لها وجود.

كانت تستيقظ أحيانًا في الليل مذعورةً من قرارها: «ماذا فعلت؟ هل أخطأت؟ هل سأبقى وحيدةً إلى الأبد؟». وكان الصوت القديم — صوت الطاعة — يعود إليها بنبرته المألوفة: «ارجعي، قولي نعم، وسيهدأ كلّ شيء». ولم يكن ذلك الصوت شريرًا؛ كان قد حماها

سنواتٍ طويلة، وكان يظنُّ أنه ما زال يحميها. لكنّها كانت تقول له بلطف: «شكرًا، لقد أدّيت ما عليك، لكنني سأمشي هذه المرّة بغيرك».

والحرّية — كما تعلّمت ميرا — ليست حدثًا واحدًا، بل عادةٌ تُبنى كل يوم. تُبنى بقول «لا» حين يجب، وبقول «نعم» حين تريد حقًّا. تُبنى بأن تتحمّل نتائج اختياراتك دون أن تُلقِيها على أحد، وبأن تسمح للآخرين أن يغضبوا منك دون أن تنهار. فمن أراد أن يكون حرًّا فعليه أن يقبل أن يكون أحيانًا غير محبوب.

ومع ذلك، فللحرّية جمالٌ لا يعرفه إلا من ذاقه. إنّه جمال أن تستيقظ في الصباح وأنت تملك يومك. وأن تنظر في المرأة فتري وجهك أنت لا وجه ما يريده الآخرون. وأن تجلس وحدك في هدوء دون أن تشعر بأنك منبوذ. وأن تُبدي رأيك — ولو بصوتٍ مرتعش — فتجد أنّ السماء

لم تسقط. وقد بدأت ميرا تكتشف هذا الجمال شيئاً
فشيئاً، وكان كل يوم جديد يمنحها دليلاً إضافياً على أن
الطريق يستحق.



«الحرية ليست أن تفعل ما تشاء، بل أن تختار ما
تفعله دون أن يقودك الخوف.»

جسرٌ إلى نفسها

وبدأت ميرا تفهم الحياة بشكلٍ مختلف. لقد كان أهلها، بكلّ ما في الكلمة من وجع، أكبر درسٍ تعلّمته؛ درسٌ دفعت ثمنه من عمرها ودموعها. وأدركت أنّ بعض الناس لا يُخلَقون ليكونوا وطنك، بل جسرُك؛ جسرًا تعبر عليه لتصل إلى نفسك، بعد سنواتٍ من الانتظار والخذلان والأمل الذي لا يأتي. وعبرت. عبرت جسر ذلك البيت وهي تعلم أنّها لن تعود إلى بنائه دارًا لها.

ثم بدأت رحلةً لملمة الشتات. جمعت قطع نفسها المتناثرة واحدةً واحدةً، كمن يلتقط شظايا مرآةٍ كُسرت. كانت تجلس في الليل وتسال نفسها أسئلةً لم تجرؤ على طرحها من قبل: ما الذي أحبه؟ ما الذي أريده؟ ما الذي يُفرحني دون أن يُرضي أحدًا؟ وكانت الأجوبة تأتي

ببطء، خجولةً في البداية كأنّها تتعلّم الكلام، ثم أوضح فأوضح.

وتعلّمت مهارةً جديدة اختارتها لنفسها، لأول مرّة في حياتها، لا لأنّ أحداً طلب، بل لأنّها أرادت. وكان في ذلك الاختيار نفسه شفاءً صغير: أن يكون لها شيءٌ تحبّه ويخصّها وحدها، تُثّقنه لأجل متعة الإتيان لا لأجل رضا أحد. وكانت كل خطوةٍ تتقدّمها فيه تُعيد إليها شيئاً من ثقتها بنفسها، كأنّها تستعيد قطعةً ضائعة من ذاتها.

وغيّرت بيئتها، فابتعدت عن كل ما يُذكرها بالكسر ويُبقّيها فيه. لم يكن الأمر سهلاً؛ فالتغيير يحتاج إلى شجاعةٍ لا يعرفها إلا من اعتاد الثبات في الألم. لكنّها أدركت أنّ الشفاء لا يتمّ في المكان الذي جرح، وأنّ الإنسان قد يحتاج أحياناً أن يغيّر مقعده ليرى الدنيا من زاويةٍ أخرى. وكانت تنتقي من حولها الوجوه واحداً

واحدًا، تتأملها وتختبرها، وتُبقى منها ما يُشعرها بالأمان فقط.

ووضعت حدودًا صارمةً لكل من حولها، حدودًا تقول بوضوح: هنا ينتهي ما أسمح لك به، وهنا يبدأ احترامي لنفسِي. لم تكن تصرخ بها، ولا تُبرِّرها، بل كانت تعيشها بهدوءٍ حازم: لا أجيب عمّا لا يحقّ لك السؤال عنه، لا أقبل الإهانة، لا أُعطي ما لا أريد إعطاءه. وكان بعض الناس يستنكر هذا التحوّل، وبعضهم يحترمه. وكانت ميرا تتعلّم أنّ ردود الفعل هذه كلّها لا شأن لها بها.

وهكذا فهمت ما لم يفهمه أحدٌ في بيتها: أنّ الأسرة هي السبب الأول في بناء الشخصية؛ فإمّا أن تُخرج إنسانًا سليمًا يعرف قيمته ويحسن اختيار من يحبّه، وإمّا أن تُنتج إنسانًا مُحطَّمًا يبحث عن ذاته في عيون الغرباء.

وَأَنَّ الإِهْمَالَ لَيْسَ غِيَابًا بَرِيئًا، بَلْ فَعْلٌ لَهُ ثَمَنٌ، تَدْفَعُهُ
الْأَبْنَةُ سِنَوَاتٍ طَوِيلَةً، وَيَدْفَعُهُ الْمَجْتَمَعُ مِنْ وَرَائِهَا.



«بَعْضُ النَّاسِ لَمْ يُخْلَقُوا لِيَكُونُوا وَطَنُكَ، بَلْ
جَسْرُكَ؛ فَاعْبُرْ عَلَيْهِمْ بِسَلَامٍ، وَلَا تَبْنِ بَيْتَكَ
فَوْقَهُمْ.»

من يحب حقًا

ومرّت الشهور، وبدأ الجرح يتحوّل من ألمٍ حيٍّ إلى ذكرى. لم يختفِ، ولم تنسَ ميرا شيئًا؛ لكنّه لم يعد يتحكّم بها. صارت تنظر إلى ما حدث كما ينظر الناجي إلى بحرٍ كاد يغرقه: باحترامٍ ويقظة، لا بذعر. وكانت قد خرجت من التجربة بسؤالٍ عميق: كيف يمكنني أن أحبّ وأحبّ دون أن أُخدع مرّةً أخرى؟

وتعلّمت أن تميّز بين من يهتمّ بها حقًا ومن يُجيد التظاهر بالاهتمام. فمن يهتمّ حقًا لا يطلب ثمنًا لاهتمامه، ولا يستغلّ أسرارها، ولا يجعل حبّه دينًا في عنقها. إنّه يبقى حين تضعف، ويفرح حين تقوى. يحترم حدودها حين تقول «لا»، ولا يعتبر رفضها إهانةً له. ولا يستعجل قربها، ولا يُغريها بما يفوق طاقتها على الوفاء.

أما من يتظاهر، فيتودّد بسرعة، ويسأل عن أخصّ التفاصيل مبكّرًا، ويُغرقها بالكلام الجميل دون أن يُثبتته بالفعل.

وصارت ميرا تنظر إلى الأفعال لا إلى الكلمات؛ فالكلمة قد تُصاغ في دقيقة، أما الفعل فيحتاج إلى استمرارٍ يفضح الصادق من الكاذب. وتمنح ثقتها بالتدرّج لا دفعةً واحدة، فتعطي القليل وتنظر ماذا يفعل به صاحبه، ثم تزيد أو تمسك. وتقبل الحبّ وعيناها مفتوحتان، لا بعينين مغمضتين كما فعلت في المرّة الأولى. ولم يكن ذلك قسوةً منها، بل حكمةً متأخّرة جاءت من ألم كبير.

ولم تقسُ على نفسها فيما مضى. كانت في البداية تلوم قلبها: كيف وثقتُ به؟ كيف صدّقتُ؟ كيف حكيتُ له كل شيء؟ لكنّها مع الوقت فهمت أنّ ذلك القلب لم يخطئ لأنه غيبي، بل لأنه جائع. وأنّ جوعه كان ثمرة

بيتٍ لم يُطعمه. فسامحت نفسها، ولم تسامح المبتزّ،
لكنّها لم تعد تدع ما فعله يحدّد لها قيمتها. وكان هذا من
أجمل ما تعلّمته: أن تفرّق بين خطأ الآخر في حقّها
وبين صورتها عن نفسها.

وفهمت كذلك أنّ الحنان الذي حرمت منه في بيتها لا
يمكن أن تستعيضه عن طريق أحدٍ آخر، لا عن طريق
حبيبٍ ولا صديقٍ ولا أيّ إنسان. فمن أراد أن يملأ فراغ
طفولته بحبّ الغرباء سيظلّ فارغاً، مهما امتلأ. والذي
يملأ الفراغ حقاً هو أن يتعلّم الإنسان أن يمنح نفسه ما
لم يمنحه إياه أحد: التقدير، والإصغاء، والرحمة. وحين
تُعطي ذاتك هذه الأشياء، يصير حبّ الآخرين إضافةً
جميلة، لا حاجةً ملحةً.

وحين ترى ميّرا اليوم فتاةً صغيرة تقف على باب بيتها
تنتظر أن يُفتح لها، كانت تشعر بشيءٍ يقبض على قلبها.

وتتمنى لو تستطيع أن تقول لتلك الفتاة ما لم يقله لها
أحد: «أنتِ تستحقين. وما قيل لكِ ليس حقيقتكِ.
وهناك عالمٌ أرحب من هذا الباب».



«من يحبُّك حقًّا لا يطلب منك ثمنًا، ولا يجعل
حبّه دينًا في عنقك.»

إلى الطفلة التي كانتها

عزيزتي ميرا الصغيرة،

أكتب إليك اليوم من مكانٍ لم تكوني تتخيلين أنكِ ستصلين إليه. أنتِ التي كنتِ تقفين عند الباب تنتظرين، وتُخبئين فرحك في غرفتكِ، وتبكين في وسادتكِ حتى الفجر. أعرف أنكِ لا تصدّقين أنّ هناك صباحًا آخر. لكنّه موجود، وقد وصلتُ إليه.

أريد أن أقول لكِ أولاً: ليس ذنبكِ. ليس ذنبكِ أنّهم لم يسمعوكِ. وليس ذنبكِ أنّكِ كنتِ تتعبين وهم لا يرون. وليس ذنبكِ أنّكِ وثقتِ بمن لا يستحقّ؛ فقد كنتِ جائعةً لا غبيّة، وكان قلبكِ أكبر من كلّ ما قدّموه له. أرجوكِ لا تحملي نفسكِ ما لا يُحمَل.

وأريد أن أقول لكِ ثانيًا: أنتِ لستِ ضعيفة. كلّ ما فعلته من أولى خطواتكِ إلى اليوم، من الصمت الطويل إلى

قولك «لا» الأولى، ومن الليالي الباكية إلى الليلة التي
قررت فيها أن تعتمدى على نفسك، كل ذلك كان
شجاعةً من النوع الذي لا يُصقّق له. والشجاعة التي لا
يراها أحد هي أنقى أنواع الشجاعة.

وأريد أن أقول لك ثالثًا: كل ما سمعته عن نفسك كان
كذبًا. لست «لا فائدة منك». لست «مقصرة». لست
«عبنًا». لست «لا تفهمين». أنت إنسانة كاملة، لك رأي
يستحق أن يُسمع، وقلبك يستحق أن يُحب، ويدان
استحققتا أن تُشكرا على كل ما أنجزتاه.

أنا لا أعرف إن كان أهلك سيفهمون يومًا. ربما نعم
وربما لا. لكنني تعلّمت أن سلامي ليس معلقًا بفهمهم.
فقد صنعتُ لِنفسي بيتًا من الأشياء التي أحبّها، وحدودًا
من الكلمات التي أقولها، وناسًا أنتقيهم بعناية. وهذا
البيت — على بساطته — يعرفني. يعرف قلبي لا يدي
فقط.

وإن كنتِ تسألين، وأنا أعرف أنكِ تسألين: هل ما زلتِ أبكي؟ أحيانًا. لكن بكائي الآن مختلف؛ بكاءً من يُنظف جرحه لا بكاءً من يُترك ينزف. وهناك أيضًا ضحكات كثيرة. ضحكات كاملة كتلك التي ضحكتهَا يومًا على درج المعهد، لكنّها الآن لا تنتهي بخوف.

فيا صغيرتي، اهدئي. لقد انتهى زمن الانتظار عند الباب. ها هي يدي ممدودةٌ إليك؛ ليست يد أمٍّ ولا يد أبٍ ولا يد حبيب، بل يدك أنتِ بعد أن كبرت. سأحملكِ بها إلى حيث لا يقول أحدٌ لكِ «اصمتي». وسنمشي معًا، أنا وأنتِ، على الجسر الذي بنيناه بأيدينا.

مع كلّ الحبّ الذي لم يصلكِ، وكلّ الحبّ الذي سيصلكِ،

ميرا



«أجمل ما تفعله لنفسك أن تحتضن الطفل الذي
كنته، وتقول له: لقد وصلنا.»

الخاتمة

ميرا التي لم تنكسر

هكذا انتهت حكاية ميرا؛ أو بالأحرى هكذا بدأت. فما
كُتب في هذه الصفحات ليس نهايةً لحياة، بل نهايةً
لمرحلةٍ كانت فيها فتاةٌ تتوسّل أن تُرى، وبدايةً لمرحلةٍ
صارت فيها ترى نفسها.

إنّ ميرا لم تنتصر لأنّها انتقمت، ولا لأنّها أثبتت لأهلها
شيئاً. انتصرت لأنّها فعلت ما لم يفعله أحدٌ من أجلها:
اختارت نفسها. حين أغلق الباب في وجهها لم تقف
تطرقه إلى الأبد، بل التفتت وبحثت عن بابٍ آخر،
وحين لم تجده بنته بيديها. وهذه الأيدي نفسها التي
كانت تمسح وثرثب وتُنظف بيتاً لا يعرفها، صارت اليوم
تبني حياةً تعرفها.

فإن كنتِ — أيتها القارئة — تشبهين ميّرا، فاعلمي أنّ ما قيل لكِ عن نفسك ليس حقيقتك. فقيمتك لا تُقاس بعدد المهام التي تُنجزينها، ولا بمقدار الصمت الذي تتحمّلينه. إنَّك تستحقّين أن تُسمعي، وأن تُحبيّ بلا ثمن، وأن تقولي «لا» دون أن تعتذري. وقد يبدو الطريق موحشًا في أوله، لكنّه يفضي إلى نفسك، وأنتِ أجمل الأوطان.

وإن كنتِ أبا أو أمًّا فاعلم أنّ أبناءك أمانةٌ لا حَدم. ما تزرعه فيهم اليوم من إصغاءٍ وحنانٍ سيعود إليك غداً ثقةً وبرًّا، وما تحرمهم منه سيبحثون عنه عند غيرك، وقد يدفعون ثمنه من أرواحهم. افتح بابك قبل أن يطرقه الغرباء، وأصغِ قبل أن يتعلّموا الصمت، وقل «شكرًا» قبل أن يتعلّموا أنّ تعبهم لا يُرى.

وإن عرفت من يشبه ميرا، فكن لها يداً صادقةً لا تطلب
ثمناً؛ أصغ ولا تحكم، واحم ولا تستغل. فرب كلمة طيبة
تُنقذ إنساناً من عمرٍ من الظلام. ورب سؤالٍ بسيط —
«هل أنت بخير؟» — يُنقذ من انهيار.

وفي الختام، تذكروا: القوّة لا تُولد معنا، بل تُصنع من كلّ
مرّة قلنا فيها «لا» ونحن نرتجف. فمن كُسرت ولم
تنكسر، ومن سقطت ونهضت، ومن صمتت طويلاً ثم
قالت «لا» — تلك هي القدوة. وتلك هي ميرا.



«لا تنتظر أن يمنحك أحدٌ قيمتك؛ فمن بنى
جسراً إلى نفسه لن يضيع في الطريق.»

بقلم نهد سليمان دالاتي